كلمة كفاح فاخوري بمناسبة إطلاق كتاب من أوراق زكي ناصيف

كنت أستعد للبدء بكتابة هذه الكلمة التي اتناول فيها الاصدار الجديد الذي نحتفل بإطلاقه في هذه الأمسية وهو كتاب **من أوراق زكي ناصيف**، وإذ بأجهزة الإعلام تنعي نبأ وفاة المطربة والنجمة السينمائية صباح التي زينت بفنها المفعم بالفرح أيام اللبنانيين والعرب، ولم يكد يمضي يوم واحد إلا وخرج الإعلام بنعي جديد طال الشاعر اللبناني الكبير سعيد عقل وبين النعيين ورد نعي ثالث للمطربة نهوند. ولأن الثلاثة جزء من الذاكرة، تسمرت أمام جهاز التلفزيون متابعاً ومتنقلاً من قناة إلى أخرى عسى أحظى ببرامج معادة عن هؤلاء الكبار فاتني متابعتها في وقتها حين كنت أقيم في الأردن بحكم عملي مديراً للمعهد الوطني للموسيقى هناك طيلة ثلاثة وعشرين سنة. وبينما كنت أتابع مجريات الأيام القليلة الماضية، استعدت في ذاكرتي ما عرفته عن هؤلاء الكبار وعن أمثالهم ممن سبقوهم إلى دنيا الحق من مثل: عاصي الرحباني وزكي ناصيف وتوفيق الباشا ومنصور الرحباني ووليد غلمية ووديع الصافي، وحتماً والدي جوزف فاخوري الذي كان جسر عبوري إلى صداقة كل هؤلاء بحكم زمالته لهم. وصار ضميري يؤنبني قائلاً: "قم يا هذا .. وباشر بكتابة كلمتك بمناسبة الإصدار الجديد كتاب **من أوراق زكي ناصيف** حتى لا يداهمك الوقت وتعمد إلى فن الارتجال الذي، وإن مارسته في الموسيقى مراراً، فقد يخذلك في اللغة تكراراً".

وقد تتساءلون ما الذي جعل برنامج زكي ناصيف للموسيقى يوجه الدعوة إلي لأتحدث بالمناسبة. وقبل أن أخبركم لا بد من توجيه شكري إلى القائمين على هذا البرنامج وفي طليعتهم الدكتور نبيل ناصيف والصديق أكرم الريس، لا لأنهم كرموني بتوجيه الدعوة لأن أتكلم في هذه المناسبة العزيزة فحسب بل لأنهم يقفون وبحماسة خلف تحقيق هذا البرنامج الأكاديمي الريادي في بلادنا، برنامج يهدف إلى أرشفة تراث هذا الكبير زكي ناصيف وحفظ آثاره والعمل بالتالي على تخطي البعد الايقوني/المتحفي له ولأعماله إلى بعد متقدم تفاعلي بطبيعته، يبقي هذا المبدع حياً في ذاكرة الأجيال القادمة ومستقبل التاريخ. وما كتاب **من أوراق زكي ناصيف** إلا خطوة من خطوات الألف ميل ونموذجاً يحفز مبادرات مماثلة في السعي إلى أرشفة تراث قامات فنية من أمثاله وحفظ أعمالها وإشباعها بالدراسة والنشر والانتشار.

إن القاسم المشترك الذي يجمعني بالمرحوم زكي ناصيف هو أننا درسنا في هذه الجامعة العريقة أي الجامعة الامريكية في بيروت. هو، وبحسب ما يرد في كتاب **من أوراق زكي ناصيف**؛ وتحديداً تحت

عنوان محطات في حياة ومسيرة زكي ناصيف، صفحة 135، درس الموسيقى من سنة 1936 إلى سنة 1939 وبشكل منتظم في معهد الموسيقى الذي كان قائماً في الجامعة الامريكية في بيروت. وعاد إلى المعهد في سنة "1941 بعد انقطاع دام حوالي السنة سببته الظروف السائدة خلال الحرب العالمية الثانية". أما أنا فدرستها في قسم الموسيقى بدائرة الفنون في الجامعة نفسها بدءاً من سنة 1965 إلى تاريخ تخرجي بدرجة بكالوريوس في التأليف والقيادة الموسيقية في نهاية السنة الدراسية 1968، أي بعد مضي ما يقارب 28 سنة.

في زمان زكي ناصيف كان معهد الموسيقى في الجامعة يضم 83 طالباً وطالبة يتابعون دراسة موسيقية ابتدائية وثانوية وعليا بحسب ما يرد في كتاب ستيفن بنروز That They May Have Life، وكان بنروز تسلم رئاسة الجامعة الأمريكية في بيروت من سلفه بايارد دودج في بداية العام الدراسي 1948-1949.

أما في زماني فقد كنا طالبين اثنين فقط في قسم الموسيقى: علي جهاد راسي وأنا. وعلى الرغم من أن جهاد أنجز جميع المتطلبات مثلي إلا أنني كنت أول خريج يحمل درجة البكالوريوس في الموسيقى من هذه الجامعة. فجهاد كان يحمل من الجامعة نفسها البكالوريوس في الإدارة العامة قبل دخوله تخصص الموسيقى، ونظام الجامعة لم يكن يسمح بحمل درجتي بكالوريوس في تخصصين يقعان ضمن نفس الكلية، فالموسيقى والإدارة العامة كانتا تابعتين لكلية الآداب والعلوم. ولمن لا يعرف فإن جهاداً اليوم أستاذ علم موسيقى الشعوب في جامعة (UCLA) بالولايات المتحدة الأمريكية ومرجع كبير في عالم البحث الموسيقي على المستوى الدولي، أما أنا فأمامكم.

وحتى لا استغرق في الحديث عن جهاد وعني أعود إلى المبدع زكي ناصيف الذي درس على يد أركادي كوغل Arkadie Kouguel، مدير معهد الموسيقى في الجامعة. وقد لجأ كوغل مع زوجته وأخيه رودلف إلى لبنان، وكان من حظ الشاب زكي أن درس في المعهد أيضاً عزف آلة البيانو على يد الزوجة وعزف آلة التشيلو على يد الشقيق.

اسمحوا لي أن اتوقف قليلاً لأصف هذا المعهد ونموه مستعيداً ما يذكره بنروز في كتابه نقلاً عن تقارير سلفه دودج. يقول: "بعد الحرب [ويقصد هنا الحرب العالمية الأولى] عرف عدد من اللاجئين الروس طريقهم إلى بيروت، وكان أحدهم الأستاذ أركادي كوغل الذي كان في وقت من الأوقات قائماً بأعمال مدير معهد موسيقي في شبه جزيرة القرم. عندما وصل الى بيروت بدأ بإعطاء الدروس الخصوصية

وتنظيم الحفلات الموسيقية في الجامعة."

ويضيف بنروز في سرده قائلاً: في خريف عام 1928 حصل كوغل على إذن حكومي لبدء معهد موسيقي خاص، لكنه آثر أن يقام هذا المعهد ضمن الجامعة الأمريكية في بيروت. وافتتح المعهد في خريف عام 1929 بحضور مدير دار معلمي الموسيقى في باريس l'Ecole Normale de Musique، عازف البيانو الشهير في زمانه ألفرد كورتو Alfred Cortot، الذي مُنح في حينه صفة المدير الفخري لمعهد الجامعة. وزار كورتو بيروت مجدداً في عام 1930 لامتحان الطلبة المتقدمين في المعهد، وقدم خلال الزيارة حفلاً موسيقياً ممتعاً داخل الجامعة وتحديداً في قاعة الوست هول West Hall.

كانت اللغة الفرنسية لغة التدريس في المعهد الموسيقي، وحظيت دروس المعهد بتقدير دار معلمي الموسيقى في باريس. وكانت هيئة تدريس الجامعة تمنح خريجي "المرحلة الأعلى" الذين يستوفون المتطلبات العامة دبلوم المعهد.

أسوق هذا الكلام لأدلل على ضرورة دراسة الأثر الذي تركه المعهد في زكي ناصيف. فنحن نقرأ في أكثر من مكان في كتاب **من أوراق زكي ناصيف** هم هذا الفنان المرهف بأن يصل نتاجه الموسيقي ونتاج نظرائه من المؤلفين الموسيقيين اللبنانيين إلى مراتب العالمية، ونقاش مفهوم "العالمية" طويل ومتشعب وقد يكون خلافي ومكانه ليس هنا اليوم، بل يحفزنا لتلمس الأجواء التي كانت تلف طلبة المعهد الذين تابعوا لا بل كانوا جزءاً من تطور علاقة المجتمع المحلي آنذاك بالموسيقى. لقد وفر معهد الموسيقى في الجامعة ومديره كوغل الأجواء المناسبة لتقبل الموسيقى والتفاعل معها في الربع الثاني من القرن العشرين وحتى منتصفه، أي قبل الانطلاق الرحب لناصيف وزملائه الذين عملوا على تشكيل هوية الموسيقى اللبنانية المعاصرة اعتباراً من بدايات النصف الثاني من القرن العشرين.

يقول بنروز: لم يكن الجمهور يتمتع بكلاسيكيات الموسيقى الأوروبية. ولم يكن بالإمكان توفير الحضور الذي يتابع حفلات هذا النوع من الموسيقى إلا بدعمها، أي بالتشجيع على حضورها مجاناً. ويضيف: وتدريجاً باتت هذه الحفلات الموسيقية مرغوبة إلى درجة عمد معها كوغل إلى اتخاذ الترتيبات اللازمة لحفلات نصف شهرية تقدمها أوركسترا سيمفونية من خمسة وثلاثين عازفاً متاحة لجمهور يتراوح عدده بين خمسمائة وستمائة شخص. وجذبت هذه الحفلات الطبقة العليا من المسؤولين الفرنسيين وزوجاتهم إلى جانب الطلبة المتحمسين ... وكانت الأوركسترا تضم عازفين روس وأرمن وفرنسيين وأمريكيين وغيرهم من جنسيات أخرى، وأنشأ كوغل أيضا أوركسترا للطلبة. انجازات لا تصدق في زماننا لو لم يؤرخها بنروز في كتابه.

وفي رسالة مؤرخة 9 ديسمبر 1940 كتبها الرئيس دودج في بيروت المعزولة بسبب الحرب يذكر الآتي: "هذه هي السنة الأولى التي أظهر فيها الطلبة اهتماماً واضحاً بالموسيقى فقاموا بشراء البطاقات لحضور الحفلات الموسيقية .... ويضيف قائلاً: إن جهد المعهد لإنتاج حب الموسيقى بين الطلبة العرب والمجتمع العربي في بيروت يبرهن على نجاحه [أي نجاح المعهد]." هذه الأجواء عاشها زكي ناصيف حتماً كما عاشها زميله في المعهد توفيق الباشا وربما أثرت فيهما وفي بلورة فكرهما الموسيقي وقناعاتهما وهذا الكلام بحاجة إلى التثبت منه علمياً.

وجاءت نكبة فلسطين سنة 1948 فترك كوغل لبنان بعد فترة قصيرة وأقفل معهد الموسيقى في الجامعة. ولأن كوغل كان عازف آلة الأرغن في الاسمبلي هول في الجامعة إلى جانب مهامه التي سبق ذكرها، كان لا بد من بديل يحل محله، فضمت الجامعة إلى هيئة التدريس فيها سنة 1949 عازف الأرغن، خريج سانتا شيشيليا، المقدسي سلفادور عرنيطة. ودرج عرنيطة على إحياء حفلتين موسيقيتين عامتين في السنة بمناسبة عيدي الميلاد والفصح وذلك من خلال جمع وتدريب كورال كان يضم في حدود ستين منشداً ومنشدة، معظمهم من طلبة الجامعة الأمريكية في بيروت وخريجيها والمقيمين في محيطها من الجالية الأجنبية. وبالإضافة إلى مهمتي العزف وتدريب الكورال كان وزوجته يسرى يدرّسان عدداً محدوداً من المواد في نظريات الموسيقى وتاريخها، وكان يتابع هذه المواد التي هي بمثابة متطلبات اختيارية بعض المهتمين بالموسيقى من طلبة الجامعة.

صادف التحاقي بالجامعة بدء برنامج البكالوريوس في الموسيقى وتأسيس قسم الموسيقى في إطار دائرة الفنون في كلية الآداب والعلوم فدرست على يد سلفادور عرنيطة وزوجته يسرى وكذلك على مدرسين انضما حديثاً في حينه إلى هيئة التدريس في الجامعة عازفة البيانو البارعة ديانا تقي الدين والقائد الموسيقي الامريكي ألن هوفي، الذي استقدم في الأساس ليقود أوركسترا كازينو لبنان لكنه سرعان ما ترك هذه المهمة لينضم إلى الجامعة. وشكل هوفي فرقة موسيقية عرفت باسم AUB Symphonic Band ضمت شباباً من الجامعة ومن خارجها يتقنون العزف على آلات النفخ الخشبية والنحاسية، وكانت هذه الفرقة بمثابة مختبر لي أثناء دراستي، فبالإضافة إلى أنها وفرت لي فرصة العزف الجماعي من خلال إشغال مقعد عزف آلة الأوبوا فيها، أمنت لي ممارسة القيادة الموسيقية بتوجيهات هوفي نفسه وبإشرافه. وبعد تخرجي وبينما كنت أحضر للماجستير في التربية مركزاً على التربية الموسيقية من خلال برنامج صمم خصيصاً لي بين الجامعة الامريكية في بيروت وكلية بيروت للبنات (والتي تعرف اليوم بالجامعة اللبنانية الامريكية) عملت خريجاً مساعداً في قسم الموسيقى بالجامعة وكان من مهامي المساعدة في قيادة Beirut Symphonic Band، كما حظيت في تلك الفترة بفرصة تأليف موسيقى مسرحية موسيقية حملت العنوان "الجامعة 1910" AUB 1910، وضع قصتها ونصوصها الغنائية زميلي مروان

نجار الذي درس الأدب العربي في الجامعة نفسها والتقينا في أكثر من مادة دراسية كان معلمنا فيها خليل حاوي مرة وإحسان عباس مرة أخرى، وقدمت هذه المسرحية في الهواء الطلق قبالة مكتبة يافث وحضرها زكي ناصيف كما حضرها الأخوان رحباني وتوفيق الباشا ووليد غلمية وسعيد عقل وأثنوا عليها. وهنا أيضاً أذكر هذا الأمر لا للتباهي بباكورة أعمالي إنما لأبيّن كيف كان يشجع هؤلاء الكبار الطاقات الشابة بحضورهم وتقديم المشورة والنصح، وفي هذا السياق ذهب زكي ناصيف بعيداً أكثر من غيره ، ووفق ما يرد في كتاب **من أوراق زكي ناصيف**، حين انضم إلى عضوية لجنة تحكيم البرنامج التلفزيوني "استوديو الفن" في ست من دوراته بدءاً من سنة 1972 إلى سنة 1992.

ودخل لبنان الحرب الأهلية سنة 1975 وبات استمرار قسم الموسيقى في الجامعة مهدداً بعد أن تخرج منه في حدود 15 خريجاً وخريجة، ولم يمض وقت طويل حتى عاد ألن هوفي إلى الولايات المتحدة الامريكية وهاجرت ديانا تقي الدين إلى انكلترا أولاً ثم إلى الولايات المتحدة وترك سلفادور عرنيطة وزوجته لبنان إلى الأردن، فأقفل القسم.

والسؤال اليوم ونحن نرى برنامج زكي ناصيف للموسيقى ينمو وينشط في رحاب الجامعة الامريكية في بيروت: ترى هل من أمل لتشهد هذه الجامعة مرحلة ثالثة جديدة من فرص تدريس اختصاصات موسيقية.

يأتي كتاب **من أوراق زكي ناصيف** على ذكر توفير فرص تعليم الموسيقى للأجيال الطالعة وهو المربي الموسيقي الذي أمضى 13 سنة في التدريس في المعهد الموسيقي الوطني اللبناني الذي يعرف اليوم بالكونسرفاتوار. أعطى زكي ناصيف عصارة تجربته في الغناء العربي المتقن لتلامذة هم اليوم من الأعلام في هذا الفن، ويجمعون بأن الفضل في ما حققوه يرجع إليه.

كما عاينت شخصياً وعن كثب اهتمام زكي ناصيف التربوي بالطفل وموسيقاه وأغانيه وذلك حين فازت بالجائزة الأولى أغنية "إننا صغار" من شعره وموسيقاه أعدها خصيصاً لمهرجان أغنية الطفل العربي الذي كانت تنظمه وزارة الثقافة في الأردن بالتعاون مع المجمع العربي للموسيقى التابع لجامعة الدول العربية وكان ذلك في أواخر سنة 1998، يومها لم يتمكن من الحضور إلى الأردن لتسلم الجائزة والوقوف بنفسه على مدى تذوق الأطفال لأغنيته الرائعة التي مثلت لبنان وتفوقت على غيرها من أغنيات الدول العربية الأخرى ببساطة كلماتها وانسيابية لحنها وشفافية كتابتها المتقنة للأوركسترا. لم تكن هذه الأغنية هي الوحيدة التي وضعها ناصيف للطفل فقد سبق له أن خاض أكثر من تجربة ناجحة في هذا المجال المتخصص. بالتأكيد كان زكي ناصيف متفوقاً في كل ما ينتجه. ولن أدخل هنا في تحليل اسلوبه الموسيقي السهل الممتنع والسبك المتكامل لمؤلفاته، التي يقف خلفها هضم واعٍ للتراث الموسيقى

الشعبي اللبناني والديني بسائر مذاهبه ولتراث الموسيقى العربية والغربية على حد سواء. فالمقام هنا لا للإضاءة على التقنيات الموسيقية التي تظهر عبقرية زكي ناصيف بل لتقديم الكتاب والتحفيز على اقتنائه وقراءته فقط.

وأعود لطرح السؤال من جديد: هل من أمل لأن تشهد الجامعة الأمريكية في بيروت مرحلة ثالثة جديدة من فرص تدريس اختصاصات موسيقية؟ في لبنان اليوم أربع جامعات تمنح الدرجات العلمية في تخصص الموسيقى، وهذه الجامعات هي: جامعة الروح القدس – الكسليك وفيها كلية للموسيقى، والجامعة الأنطونية وفيها معهد موسيقي عالي، وجامعة سيدة اللويزة وفيها قسم للموسيقى، والجامعة اللبنانية وفيها ضمن كلية التربية تخصص التربية الموسيقية. وإذا أضفنا المعهد العالي للموسيقى – الكونسرفتوار، يكون لدينا في لبنان خمس مؤسسات تعليمية توفر تخصصات موسيقية. فهل من ضرورة لمؤسسة سادسة كانت في الأساس السباقة ؟ الأمر يعتمد قبل كل شيء آخر على قراءة متأنية لحاجات سوق العمل من المهن الموسيقية. فإذا اعتبرنا بأن سوق العمل بحاجة إلى مدرسين وعازفين فإن المؤسسات الخمس قادرة أن تغطي ذلك. إذاً ماذا يمكن للجامعة الأمريكية أن توفر من تخصصات موسيقية يحتاج إليها سوق العمل وهي غير متوافرة في المؤسسات الأخرى.

بادىء ذي بدء أتمنى أن تكون الجامعة في وارد توفير برنامج تخصصي في الموسيقى من جديد. والكل يعلم اليوم الدور الكبير الذي تلعبه الموسيقى في حياة الشعوب بفعل التقدم التكنولوجي ووسائل الاتصال والإعلام والتواصل وثورة المعلومات. والجامعة الأمريكية في بيروت في بنيتها القائمة حالياً والمستوى الذي بلغته قادرة على تهيئة ظروف وتوفير مناخات لتخصصات موسيقية تحتاج إليها منطقة الشرق الأوسط وغير متوافرة في باقي المؤسسات التعليمية المنتشرة في هذه المنطقة. فالتخصصات الموسيقية المقترحة تالياً تتكامل إن هي استفادت من تقديمات كليات الطب والعلوم الصحية وإدارة الأعمال والعلوم والآداب. أما التخصصات المقترحة فهي:

- العلاج بالموسيقى وهو تخصص يتحالف مع المهن الصحية وظروف بلادنا بأمس الحاجة إليه،
- إدارة الفنون الموسيقية وهو تخصص يتكامل مع تخصص إدارة الأعمال ومن يقوم بإدارة الفنون الموسيقية في بلادنا حالياً يعتمد في عمله وفي قراراته على الفطرة والخبرة الشخصية، وكم يكون الوضع أفضل لو يسبق كل هذا البعد الموسيقي الأكاديمي الذي يؤمن الموضوعية،
- التكنولوجيا والموسيقى وهو تخصص يتقاطع مع أكثر من تخصص في مجالات الهندسة وتكنولوجيا الحاسوب والبرمجيات والإعلام، وبقراءة مستقبلية لصناعة الموسيقى في لبنان نتأكد بأن تخصصاً من هذا المستوى يبقي هذا البلد في الطليعة،
- التأليف الموسيقي والقيادة الموسيقية وهو تخصص إذا حضنته الجامعة مجدداً مكنت من تطوير

كفاءات قادرة على توظيف الابداع الذي يتبنى الوعي الصادق للتراث الموسيقي المحلي والإقليمي العربي وينفتح في الوقت نفسه على حداثة مسؤولة.

عشر سنوات مرت على وفاة زكي ناصيف ويأتي كتاب **من أوراق زكي ناصيف** ليؤرخ هذه الذكرى. ترى كم زكي ناصيف جديد سوف ينمو في رحاب هذه الجامعة ويكون أداة تغيير إذا توافرت هذه التخصصات بعد عشر سنوات من اليوم وبعد عشرين سنة وأكثر. وبهذا يتحقق شعار الجامعة ويتجدد لا لطلبتها فحسب بل لمجتمعاتنا كلها: "فلتكن لهم حياة ولتكن لهم الأفضل."